دور(الفيدا) كتاب الهندوس المقدس في تأسيس الدراسات اللغوية الحديثة

عبدالقادر أحمد عبدالله الحمزي[١]، د. عبده بي[٢]، د. سابق إم كي[٣]

الملخص

لكتاب الديانة الهندوسية المقدس (Vedas) فيدا دور بارز ومهم جدا في تطور علوم اللغة بشكل عام وكان الاهتمام بما يحتويه الكتاب من آيات وتعاليم وحكم مكتوبة باللغة السنسكريتية التي أولاها اللغويون والنحاة آنذاك اهتماما كبيرا للحفاظ على لغة الديانة والتي بها سيتم الاحتفاظ بالكتاب المقدس لديهم، وقد نبغ علماء في اللغة السنسكريتية خلفوا إرثا كبيرا ومتطورا في شتى جوانب علم اللغة منهم اللغوي الشهير (Brahman Panini) براهمن بانيني، وتقف هذه الدراسة على إبراز دور كتاب (Vedas) الفيدا من حيث كونه كان السبب لنشوء أقدم دراسات لغوية نحوية وصوتية ووضع اللبنات الأولى للعلوم اللغوية اللاحقة سواء العربية أو الغربية الحديثة، كما ستقرب هذه الدراسة المفهوم عن الديانة الهندوسية لدى المتلقي العربي الذي تغلب عليه المفاهيم الخاطئة عن هذه الديانة.

وترتكز هذه الدراسة على عدة محاور هي:

-الهندوسية

---

١ عضو هيئة تدريس مساعد بكلية التربية- المحويت، جامعة صنعاء، اليمن، باحث في كلية إم إي إس ممباد، جامعة كاليكوت.

٢ عبده ب. أستاذ مشارك ومشرف البحث، بالكلية الحكومية السنسكريتية بتامبي، كيرلا الهند.

٣ د. سابق أم. ك. نائب عميد كلية إم إي إس ممباد لشؤون الجودة، كلية ممباد، كيرلا الهند.

-التعريف بكتاب (Vedas) الفيدا.

-أبرز علماء اللغة السنسكريتية.

- الدراسات الصوتية والنحوية الهندية القديمة.

الكلمات المفتاحية: الفيدا– اللغة السنسكريتية- الدراسات الصوتية الهندية- الدراسات النحوية الهندية.

المقدمة

تعد اللغة نظاما يميز البشرية عن بقية المخلوقات، وهي سبب رئيسي في ازدهار الحضارات البشرية في مختلف العصور لما تحققه من تواصل وتبادل خبرات وأفكار وعلوم بين أفراد المجتمعات ككل، مع أن الحيوانات لديها لغة -أيضا- لكن نظامها اللغوي بسيط وليس بالتعقيد نفسه لدى اللغات الإنسانية، ولعظم أهمية اللغة لدى الإنسان فقد حاول تفسير نظامها ومعرفة ماهيتها منذ القِدم في كل الحضارات الإنسانية وهنا نقف أمام أقدم حضارة تناولت اللغة كموضوع من حيث بنيتها وقواعدها وحاولت تفسير ظواهرها، وقد كان لها أثر في الدراسات اللغوية الحديثة ووضعت اللبنة الأولى للدراسة اللسانية الحديثة، فالدراسات الهندية قد كان لها السبق في مجال الدراسات اللغوية من حيث القيمة والتاريخ، يقول المستشرق اللغوي "برجشتراسر"(Bergstrasse): " ولم يسبق الغرب في علم الأصوات إلا حضارتان من الشرق هما: الهنود والعرب"[١].

فكما هو معلوم بأن أقدم دراسات ناضجة لعلوم اللغة بجوانبها المختلفة هي الدراسات الهندية باللغة السنسكريتية حيث كان السبب الرئيسي والدافع المهم

[١] (برجشتراسر، ١٩٩٤م.)، ص١١.

هو الحفاظ على اللغة السنسكريتية كونها لغة الديانة الهندوسية ولغة الكتاب المقدس عند الهندوس "الفيدا"، على الرغم من أن تلك اللغة أصبح لا يجيدها إلا النادر من الكهنة الهندوس إلا أن المؤلفات اللغوية سبقت كل الحضارات حتى الإغريقية ويعد أقدم ما وصلنا من تلك المؤلفات اللغوية حيث يعود للقرن الخامس قبل الميلاد، وما تهتم به الدراسة هو إبراز دور الكتاب المقدس لدى الهنود الهندوس "فيدا"، وذكر جهود علماء اللغة الذين ساهموا في تطوير هذه الدراسات بشتى جوانبها.

جهود علماء اللغة الهنود القدماء

عند الحديث عن تاريخ أغلب العلوم نجد ذكر اليونانيين في مقدمة الأمم ذكرا حيث كان لهم باع كبير في شتى العلوم إلا أننا حين نتحدث عن تاريخ علوم اللغة بفروعها لابد من الوقوف أولا عند الدراسات الهندية.

أقدم دراسة لغوية هندية باللغة السنسكريتية[1] (اللغة الكلاسيكية للهند) وصلتنا قبل التاريخ الميلادي بخمسة قرون، ولا شك بأن دراسات سابقة لما وصلتنا كانت قبل هذا التاريخ، ولم تكن هذه الدراسات بدائية أو هامشية بل خاضت علوما لغوية استندت عليها الدراسات الإنجليزية الحديثة لا سيما في الدراسات الصوتية في مطلع القرن التاسع عشر بعد تقديم "وليم جونز" الدراسات النحوية

١ اللغة السنسكريتية هي لغة قديمة في الهند وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجاينية. لها موقع في الهند وجنوب شرق آسيا مشابه للغة اللاتينية واليونانية في أوروبا في القرون الوسطى

والصوتية الهندية إلى المجتمع العلمي الإنجليزي.[١]

وهنا نعدد إنجازات العلماء الهنود في الدراسات اللغوية من حيث نوع الدراسة فهناك دراسات صوتية وهناك دراسات نحوية نذكر هذه الإنجازات حسب ورودها في المراجع.

الدراسات الصوتية الهندية

تنوعت الدراسات الصوتية لدى علماء اللغة السنسكريتية الهندية قديما وشملت معظم جوانب الصوتيات وتتلخص هذه الإنجازات بالآتي:

١. درسوا الصوت المفرد وقسموه إلى علل وأنصاف علل وسواكن.

٢. قسموا العلل إلى بسيطة ومركبة.

٣. قسموا السواكن بحسب مخارجها.

٤. توصلوا إلى أثر القفل في إنتاج الأصوات الانفجارية.

٥. توصلوا إلى أثر الفتح في إنتاج أصوات العلة.

٦. توصلوا إلى أثر التضييق في إنتاج الأصوات الاحتكاكية.

٧. بينوا كيفية تسرب الهواء من التجويف الحنجري، حيث فسروا كيفية إنتاج النفس وكذا كيفية إنتاج الصوت، فإذا فُتح بين الوترين ينتج النفس، وإذا تم التضييق بينهما أنتج الصوت.

٨. صرح علماء اللغة الهنود بأن النفس يحدث في حالة الأصوات الساكنة المهموسة، والصوت يحدث في حالة السواكن المجهورة أو العلل.

---

١ (عمر, أحمد مختار عبد الحميد، ٢٠٠٣)، ص ٥٥.

٩. تحدث الهنود عن المقطع الصوتي بشكل مفصل.

١٠. وضعوا قواعد دقيقة للنبر في اللغة السنسكريتية، واعتبروا النبر من خصائص أصوات العلة لا من خصائص السواكن، وقسموه إلى ثلاث درجات.[1]

الدراسات النحوية الهندية

نشأت لدى الهنود اثنتا عشرة مدرسة نحوية مختلفة، تم من خلالها تأليف عدد كبير في الدراسات النحوية السنسكريتية، إذ وصلتنا دراسات تربو عن الألف مصنف منها ما هو أصلي ومنها ما هو شارح، ومن أشهر المؤلفات التي كانت تمثل فترة نضج في هذا المجال كتاب (الأقسام الثمانية) للمؤلف (بانيني) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، فقد صاغ ثلاثة آلاف وتسعمائة وستة وتسعين قاعدة نحوية للغة السنسكريتية، حيث كانت أول لغة يتم صياغة قواعدها النحوية.[٢]

إنجازات علماء الهند في النحو ما يأتي:

١. جمع المادة اللغوية أولا ثم تصنيفها واستخلاص الحقائق منها.

٢. تحديد أقسام الكلام إلى: (اسم، فعل، حروف إضافة، أدوات).

٣. تحليل أقسام الكلام إلى عواملها الأولية، والتمييز بين الجذر والأصل، وحروف الزيادة وحروف التشكيل.

---

1 (عمر، البحث اللغوي عند العرب ٢٠٠٣)، ص٥٩

٢ (محمد بولخطوط ٢٠١٩)

٤. تمييز المفرد والمثنى والجمع.

٥. تقسيم الفعل حسب الزمن (ماض وحاضر ومستقبل).

الدراسات المعجمية الهندية

بدأت الدراسات المعجمية مبكرا لدى الهنود حيث بدأت في شكل قوائم تضم الألفاظ الصعبة الموجودة في النصوص المقدسة في كتاب فيدا المكتوب باللغة السنسكريتية، فكتاب الهندوس المقدس قد ساهم بشكل كبير في علوم اللغة الهندية الصوتية والنحوية والمعجمية، حيث كان دافع تلك الدراسات هو الحفاظ على لغة كتابهم المقدس الذي يتضمن العبادات والترانيم وفلسفة ديانتهم ورؤيتهم للكون والإنسان، كما كان يحث مضمون الكتاب على العلم، مما أسهم في سبقهم لبقية الأمم في هذه الدراسات كما هو الحال عند المسلمين بشأن القرآن الكريم الذي كان مصدر إلهام لكثير من العلماء لبناء التراث العلمي الإسلامي الإنساني أو التطبيقي.[١]

كانت الدراسات الهندية المعجمية متخصصة في ألفاظ الكتاب المقدس ثم تدرجت بالتسلسل كما يأتي:

١. جمع الألفاظ الصعبة في النصوص المقدسة.

٢. شرح معاني الألفاظ الصعبة في النصوص المقدسة وهذا ما يسمى الآن (معاجم الموضوعات أو معاجم المعاني).

---

١ (محمد بولخطوط ٢٠١٩).

٣. تصنيف معاجم تشمل ألفاظا غير موجودة في الكتاب المقدس، وأبرز هذه المعاجم (أمارا كوسا Amara Kosa) وقد تم تصنيفه قبل القرن السادس الميلادي لمؤلفه (أمارا سنها Amara Sinha).

٤. ضمت المعاجم الهندية كلمات المترادفات، والمشترك اللفظي، وجزءا من الكلمات غير المتصرفة والكلمات المذكرة والمؤنثة أو المحايدة، مع العلم بأنها لم تكن مرتبة لتيسير اللجوء إليها، بل كانت منظومة ليسهل حفظها، فيما عدا المشترك اللفظي الذي تم ترتيبه حسب الحروف الساكنة في أواخر الكلمات.

كل هذه الإنجازات كان دافعها الرئيسي هو كتاب "فيدا" المقدس، لذا لابد من الوقوف على ماهية هذا الكتاب ومضمونه.

فيدا (Vedas):

يطلق على الكتاب المقدس للديانة الهندوسية فيدا (Vedas) وهو كتاب يقع في ٨٠٠ مجلد تقريباً تم تأليفه طيلة ١٠٠٠ سنة وقيل ٣ آلاف سنة، وكلمة فيدا تعني: معرفة كل مجهولٍ عن طريق الدين، وهو ما يُفسر أن جميع المعارف والعلوم الهندية التي كانت منتشرةً هي مأخوذة من كتاب الدين، ويختلف العلماء على زمن جمعه، لكن بعض الدراسات أفادت أن أقدم آياته تعود للقرن الخامس قبل ميلاد المسيح، ولكن معظم الدراسات الأخيرة تشير إلى أن تاريخ جمع "فيدا" يعود إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح.

وتُعد الفيدا هي السلطة الكتابية النهائية للهندوس، ويقال أن أقدم أجزائها تعود إلى حوالي ٥٠٠٠ عامٍ قبل الميلاد، وتم نقلها لكافة العالم مكتوبةً باللغة السنسكريتية، مما يجعله أطول وأقدم كتابٍ مقدسٍ في العالم، ويفتح فيدا نافذةً نادرةً على المجتمع الهندي القديم، الذي يعلنون من خلاله قدسية الحياة والطريق إلى الوحدة مع الله، ولقرونٍ عديدة وحتى يومنا هذا ظلت "فيدا" هي القوة الداعمة

والعقيدة الرسمية، التي توجه أتباع الهندوسية في طرق العبادة والواجب والتنوير ويُعد "فيدا" هو مصدر التركيز التأملي والفلسفي لملايين الرهبان والباحثين، ويقبل كل الهندوس تعاليم فيدا بكلِّ إخلاصٍ، ولكن كلًّا منهم يرسمها بشكل انتقائي ويفسرها بحرية ويضخمها بوفرة، وبمرور الوقت نسج هذا الولاء المتسامح النسيج المتنوع للهنود.

محتويات كتاب فيدا (Vedas)

الكتاب مقسم إلى أربعة أجزاء ضخمة هي:

رامايانا: هي ملحمة شعرية هندية قديمة بالسنسكريتية ويتحدث هذا الجزء عن نشأة الآلهة وأساطيرها والكون، ويشكل هذا الجزء الفلسفة الهندوسية تجاه الذات والكون.

مانوسمرتي: وتتحدث عن حقوق الطبقات الأربعة الهندية، فهي تشرح كيف تم خلقهم وعلى هذا الأساس يتم ترتيبهم من الأعلى إلى الأدنى كما يأتي:

أولا: البراهمة هم الذين خلقوا من رأس الإله كريشنا، مع العلم بأن البراهمة هم الوافدون من أواسط أوروبا والذين سكنوا على مصب نهر السند.

ثانيا: الكشاتريا وهم الذين خلقوا من ذراعي كريشنا.

ثالثا: الفايشيا وهم من الأفخاذ.

رابعاً: الشودرا وهم الذين خلقوا من أقدام كريشنا، فهم المنبوذون والمضطهدون الذين لا يحق لهم شيء في دين الهندوس، وقد قاموا بثورة شاملة في القرن الأول الميلادي ونجم عن ذلك رفع بعض الضيم عنهم فكان إخماداً محنكاً لتلك الثورة.

المهابهاراتا: واحدة من الملحمتين الكُبريين المكتوبتين بالسنسكريتية في الهند القديمة أما الأخرى فهي رامايانا، وتعد ملحمة المهابهاراتا جزءاً من التاريخ الهندوسي

المسمى (الإيتيهاسا الهندوسية) وتُشكل جزءاً هاماً من الميثولوجيا الهندوسية، وتشكل المهابهارتا جزءاً هاماً من ثقافة شبه القارة الهندية، وهي نصٌ رئيسي من نصوص الهندوسية، حيث تدور أحداث هذه الملحمة حول مناقشة الأهداف الإنسانية الملخصة بالهدف الأول: الغرض (أرثا)، والهدف الثاني: المتعة (كاما)، والهدف الثالث: الواجب (دارما)، والهدف الرابع: التحرر (موكشا)، تدور هذه المناقشة ضمن تقليد راسخ يحاول تفسير العلاقة بين الفرد والمجتمع والعالم، وطبيعة الذات، وأعمال الكارما، ووفقاً للمهابهارتا نفسها فإنها جاءت من نصٍ أقصر اسمه بهارتا يتكون من أربعة وعشرين ألف سطرٍ شعري تتحدث عن الأعمال والمهن وإرشادات الحياة والقضايا والوصايا.

الأوبانيشاد(upani-shads) (خطابات مستنيرة): ويتحدث عن الطقوس العبادة والأناشيد والقرابين وطريقة تقديس الآلهة، وقد ترجمت بعض الأجزاء الصغيرة من هذا السفر الضخم في عدة لغات الإنجليزية والفرنسية وغيرها الهندوسية تعطي معلومات عن الآريين وعن التعاليم والطقوس الفيدية والتراث الفلسفي الهندي. وما زالت آلهة الشعب الفيدي موجودة في العقيدة الهندوسية حتى اليوم بصورة أخف من السابق لتأثير الأديان الجديدة في النفور من الهندوسية كالإسلام والمسيحية، وأيضاً لتحكم القوانين البشرية الجديدة والعولمة في السطوة القديمة للطقوس الفيدية القاسية.

الخاتمة

توصل الباحث في خاتمة هذه المقالة أن الدراسات الهندية اللغوية الخاصة باللغة السنسكريتية كانت أقدم الدراسات، كما أنها كانت البذرة الأولى الناضجة للدراسات اللغوية الصوتية والنحوية والمعجمية لدى العرب بعد قرون حيث تأثرت الدراسات اللغوية العربية بالطرق اللغوية الهندية، كما كان لها الأثر الكبير في نشأة

الدراسات اللغوية اللسانية في أوروبا في العصر الحديث، ويجدر التأكيد هنا أن تلك الجهود كانت ناضجة ولم تكن مجرد بدايات بسيطة، كما أن كل تلك الإنجازات في الدرس اللغوي الهندي السنسكريتي كانت نابعة من مبدأ الحفاظ على لغة كتاب فيدا المقدس، ولذا كانت جل الدراسات خصوصا في بدايتها تركز على الدرس اللساني من خلال مفردات كتاب فيدا الهندوسي المقدس.

المصدروالمرجع

- عمر، مختار أحمد، البحث اللغوي عندالعرب،ص ٥٩ ،الناشر:عالم الكتب
١٩٨٨م
- بولخطوط، محمد، الدرس الصوتي القديم بين الهنود والاغريق والعرب ،
- مجلة ، العمدة في اللسانيات و تحليل والخطاب ، المجلد، ٣ ، الناشر : محمد
بوضياف
- براجستراسر ، جوتهلف ، التطور النحوي للغة العربية ، الناشر : مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٣